ابن أبي طالب (١)

بقلم : الاستاذ عبدالله الخفيزي

ابن ابي طالب ترنيمة المتهجد ، السابح في ملكوت الله ، يسبح للخالق العظيم على ما ابدع ، اذ يرتفع في نجواه من عالم المادة الى قدسيته وجلاله المبدع الصناع ، فتتقوى الصلة بين العبد وربه ، في اتصال روحي ، تفنى معه المادة ولا يحس بشيء منها ، فلا تنتزع السهام المتكسرة في جسده ، التي تتهافت عليه في ميادين النضال ، الا وهو في هذه الغمرة الروحية العارمة ، وحتى تكون هي الجسر الوحيد التي تمكن المجرم من مقارفة اعتدائه الاثيم ، والدرع الذي يضفي على الرعديد الجبان ، حينما يريد ان يفرغ كل حقده وضغنه الشرير على الخير والحق ، فلا يستطيع ان يصل الى مأربه الدنيء ، الا وعابد ربه بلا خوف ولا طمع ، في غمرته الروحية ... وحينذاك تتجمد كلمات النجوى على فمه ، وتهز كيانه الفرحة ، حينما يرى نفسه قد بلغ قمة الامل وغاية المنى ، وهو الفوز المرجو : « فزت ورب الكعبة » .

ابن ابي طالب النجم الذي يوجه الزاهد له بصره ، في ترفعه عن

البحث في الامام لسعة آفاقه يضيق لكثرة الباحثين فيه والمتتبعين لسيرته وعلى المرء ان يأتي بجديد وها انذا اقدم بين يدي القراء الافاضل ما تمكنت منه راجيا غض النظر عما هفوت والسلام .

بغداد — الدكتور مهدي محبوبه

---

(١) القاها في الاحتفال الذي أقيم في مدينة كربلاء المقدسة بمناسبة ميلاد بطل الاسلام الامام امير المؤمنين علي بن ابي طالب ع) وذلك بتاريخ ١٣ رجب ١٣٨٦ هجـ المصادف ٩٦٦/١٠/٢٦ م .

ملذات الحياة ، ودنايا الشهوة ، مع قدرته عليهـا ، فيكتفي من الطعـام بقرصيه ، ومن اللباس بطمريه ، وهو امير المؤمنين ، الذي لو شاء لالتذ وتنعم ، ولو شاء الترف لما عسر عليه ، بل لصلحت له امور الدنيا ، ودان له من تقم عليه ، ورضى منه الغضبان، ولما ثار عليه من نقم منه نظافة الحكم وقسوة العدل ... ولكنه لا ينظر للحياة بجميع ملاذها ونعيمها نظرة تقدير مادي ، بل لا يقيمها من حيث هذا التقييم الا بجناح بعوضة ، او شسع نعل ، ما لم يعش للحق ، ويعمل للخير ، ويدع لسبيل ربه .

ابن ابي طالب الصورة المثلى ، التي يستمد منها الاقدام والتضحية ، ذلك الخائض غمار المعارك ، في سبيل الدفاع عن مبدأ ، والجهاد من اجل عقيدة ، فلا يبالي وقع على الموت ، او الموت وقع عليه ، ولا يبالي ان يخرج حاسرا امام مدجج بالسلاح ، مقنع بالدرع ، فالحق يأبى التبرقـع ، وهو الابلج الواضح ... وهنا تكون الاستهانةبالحياة ،واستمراء طعم التضحية، وحلاوة الفداء ، حينما يقرأ سطرا سجله الخلود بمداد النور « برز الحق كله للشرك كله » والحق كله لا يمكن ان يندحر ولا يتقهقر امام قـوى الشرك الزاحفة ... الحق حينما يتجسد في شخص ، وتتجمع اطرافه وتلتحم حلقاته لا تنزاح ، ولا ترجع قيد شعرة ، مهما زمجرت قوى البطل ، ومهما قعقعت اسلحة الشرك ،... فالحق حين يسفر ، يبدد تلك السحب الدكناء تنشر ظلمة الباطل ... وبضربة واحدة تنهد قوى الجور والظلم حتى تكون لهذه الضربة رجحان القيمة ، والثواب على اعمال الثقلين الى يوم القيامة ، حيث تكون هذه الضربة حجر الاساس في الهيكل العبقري .

* * *

ابن ابي طالب القمة الشماء التي يرنو لها عاشق العدالة ومحب الخير للانسانية في محاربة للظلم والجور الذي لا يرتضيه لمخلوق يدب على وجه

الارض ، وليس للانسان وحده ، فالظلم هو الظلم ، والجور هو الجور ، ان وقع على انسان او حيوان ، او حتى حشرة ، فالنزعة الظالمة ، والروح الشريرة يجب ان تحارب ، وان تتلاشى من الكون ، ان تنعدم من الوجود، فالعدالة يخدش عزتها ، ان تهاون او تعايش الجور ، في احقر صورة ، ولو انحصر في جانب من جوانب الحياة ، وليس للخير ان يكون للشر صنوا ، وليس للعدل ان يستعين بظالم حتى في سبيل تمكين العدل نفسه لان الغاية ليست مبررة للواسطة ، الا عند ادعياء العدالة ، ممن يتمشـــدق بالسلم والعدالة وهو منهما ابعد من السماء للارض ، وليس يرتضي أي ثمن او قيمة لقاء جور ضئيل لمخلوق غاية في الحقارة ، فيكفي ان يندرج تحت نطاق الظلم ، « والله لو اعطيت الاقانيم السبعة بما تحت افلاكها على ان أعصي الله في نملة اسلبها جلب شعيرة ما فعلت » . اقانيم سبعة بما تحويه وهو كل هذا الكون والوجود ، لقاء ماذا ... سلب نملة تدوس منها آلافا ، وماذا يسلب منها ؟ جلب شعيرة ، قشر حقير من حبة شعير منعدمة القيمـــة .. ولكنه ظلم ، والظلم لا يطاق ، لا يطيقه المظلوم ، وهو مع ذاك اخف وقعا وأقل ألما من يوم الظالم الذي تشتد وطأته ويثقل حمله ، وتطول ســـاعاته على يوم الظالم ، فكيف وله ايام وايام مشحونة بالجور ، مثقلة بالظلم ، وان احتمال كل ألم موقت ، مهما عظم وقعه ، لاخف ألما .. ان صحت المقايسة من الم ظلم يقترف ... فالسحب على واخز الشوك مع ثقل الاغلال، احب الى (علي) ــ قمة العدل ــ من لقاء الله ظالما لبعض العباد ، حيث يقف مع ذلك المظلوم للحساب ، والحكم هو العدل الذي لا يجور ، عدالة السماء هي ميزان الحكم يومذاك .

* * *

ابن ابي طالب المثالي الاكمل لمن شاء ان ينتهج من البلاغة طرقها ، ومن الفصاحة معالمها ، دون ان تكون للصنعة أثر ، او للكلفـــة معالم ،

تنحدر كالسيل من القمة الى السفح ، في حسن اداء ، الى مكان تتقاصر عنه بلاغة المخلوقين ، وتتقاصر هي عن بلاغة الخالق ، حيث لا يمكن ان يدانيها مخلوق مهما ارتفع وعظم .

* * *

ابن ابيطالب المثل الاعلى للحاكم ، يبني حكمه لمصلحة المجموع ، ولتحقيق ارادة الله ، والقيام بحق خلافته : حكما بالعدل ومساواة بين افراد الرعية ، لا طبقية ولا استغلال ، ولا استعلاء ولا تحكم ولا ظلم ولا جور ، لا رفع فئة وانحطاط باخرى ، لاضرر ولا ضرار ... لا يستعلي كبير على صغير ، ولا يتعالى قوي على ضعيف .. الجميع أمام الحق والواجب والقانون سواء ، بل يقوى الضعيف على اخذ حقه ، حتى يضعف القوي في اغتصاب حق ذاك الضعيف ، « القوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه والضعيف قوي حتى آخذ الحق له » مساواة ترتفع وتسمو حتى يساوى الحاكم اضعف ما في الرعية ، فمسؤولية الحكم لا تطاق ، ولا يمكن ان تكون في حدود الاسم ، دون شعور بالواجب الذي يفرض عليه مساواة نفسه هو الحاكم في عطائه وفي عيشه ، وفي مسكنه ، وفي لباسه ، وفي كل شؤون حياته ، مع اضعف من تضمه رقعة حكمه « أو ارضى ان يقال لي امير المؤمنين ولا اشاركهم في مكاره الدهر أو أكون لهم اسوة في جشوبة العيش » الحكم مشاركة المجتمع في اتراحه وافراحه ، في ليونة العيش وشظفه ، في حلاوة الوجود ومرارة طعمه ، في تحسسه لكل فرد ، لا ان يعيش بعيدا عن المجتمع ، لا يدري بمرارة العيش ، ولا يتذوق سوى حلاوة الحكم ولذة بطشه ، وسوى ارضاء نزعاته وملء كرشه ، « أو ابيت مبطانا وحولي اكباد غرثى ولعل في الحجاز او اليمامة من لا عهد له بالقرص ولا طمع لـه بالشبع » .

ابن ابي طالب النبراس ، الذي يسير على ضوئه العالم في مختبره ،

والمفكر في اكتشافاته ، « لو شئت لاتخذت لكم من هذا الينبوع نارا » يلقي هذه الكلمة في بساطتها ووجازتها • ولا يدري ذلك المجتمع ماذا يعني، حتى تمر القرون ونرى فيها مفتاح اكتشاف الذرة الهيدروجينية •

ابن ابيطالب الدليل الذي يأخذ بيد مرتاد المجهول ، ومكتشف ما في الفضاء من افلاك ، ومن يطمح ان يحط بقدمه على القمر ،« سلوني قبل ان تفقدوني فاني اعلم بطرق السماء مني بطرق الارض » •

ابن أبي طالب أب العلم في جميع فروعـه ، ونبع المعرفة في مختلف مجالاتها ، ورافع راية العلم والفكر خفاقة رفرافة في جميع الازمنة والعصور رغم أنه لم يجد لمعرفته طلابا ، ولا لعلومه حملة ، ولو وجد بعضا من هؤلاء أو ثلة من أولئك ، لكان الوجود غير اليوم ، وانفتح باب مدينة العلم على مصراعيه • تصفيق •

ابن أبي طالب النسخة الثانية للانسان الكامل وللانسانية في أوج كمالها وذروة علوها ، حيث تبقى في نقاء طهارتها تتطلع لها العيون وتحوطها القلوب وتهفو نحوها النفوس ، تحتذي نهجها ، وتقتبس نورها • تصفيق •

بهذه الخصائص ، وبهاتيك المميزات ، التي لايأتي عليها الاحصاء ـــ ومن ذا يغامر فيدعى لنفسه الطاقة على توفية شخصية ابن ابيطالب ما تستحقه من تحليل ودرس عميق ، أو على حصر ما حفلت به نفسه الجبارة من المميزات والخصائص ، التي أهلته لأخوة محمد (ص) دون سواه ، ومزجت بين روحيهما • تصفيق •

بهذه وبتلك أصبح ابن ابيطالب التراث الانساني الخالد ، التراث المشترك لبني الانسان جميعهم ، لاتختص به طائفة ، ولا تحتجزه فئة ، ••• فهو فوق الفواصل والحدود مهما كان لونها وجنسها ••• تصفيق •

بهذا كله • أصبح ابن أبي طالب الرجل الثاني في الاسلام ، حيث عاش حياته من أجله ، منذ لحظته الاولى في هذه الحياة ، ففتح عينيه في اعظم بيت

لله جعل للناس مثابة وأمنا ، وجعل افئدة تهوي اليه ، وكان القبلة التي يؤمها الناس في كل صلة لهم بالله ، وعبادة يشكرون فيها الخالق على أبداعـه ، وولادته هنا ــ في أقدس مكان يجله الاسلام ويرفعه ــ هذه الخصيصة لابن أبي طالب ، كأنها تشير وتوجه المسلم الى بداية حياة هذا الذي وقف حياته للاسلام ، فعظم حقه على كل مسلم،وعاش الاسلام منذ يومه الاول فتشاكلت بداية الحياة ونهايتها في ربط وثيق ، وارتفاع رائع ، في تضحية وفداء فذين ... النهاية تعيد البداية ... في أول مسجد تبدأ الحياة ، وتتسلسل في جهاد وعمل للحق ، وامتزاج به ، والتحام لا انفصال معه ولا انفكاك ، مع نكران ذات ، وانسحاق انية ، من أجل الصالح العام .. حتى تختتم الحياة بمثل البداية في رابع مسجد يقدس ... حياة عاشها لله ، فاتحتها في بيت الله ، وخاتمتها في بيته (تصفيق) وجهاد من أجل تثبيت كلمة الله واعلائها ، ودعوة الناس الى الله ، ودفعهم للصلة به ، فتختتم حياته وهو في صلة بربه ، التي لم يتوان حتى في تأخير وقتها وهو في قلب المعركة ، في أتون الحرب ، تحت لمعان السيوف ، وبريق الخناجر ، وازيز السهام ، ويكون جوابه لمن لأمه على اقامة الفرض بين الصفين : « انما قاتلناهم على الصلاة » ... فهو صاحب مبدأ ، مدافع عن عقيدة ، كيف يتخلى او يتهاون في لحظة من حياته، عن هذا الواجب الذي هو من المبدأ عماده ، وهو الحبل الذي يربط بين العبد وربه ، هذه الصلة الروحية الوثيقة التي متى انقطعت ، ابتعد الانسان عن ربه ، وانحلت الصلة ولم يتمثل المبدأ . تصفيق .

ذلك من سيرة ابن أبي طالب جانب ، أو خط ــ وأراني لازلت مبالغا، فهي لاتعدو النقطة الممحوة من حفيل سجل حياته ، المليء بالحق والعدل والخير والعلم ... اذ ليس من يستطيع اعطاء كامل الصورة ، مهما الهم البلاغة ، وعمق الفكرة ، وقوة العلم . تصفيق .

ذلك جانب من حياة العابد الذي عبد ربه عبادة اليقين ، الزاهد في

الحياة زهد القادر على الترف . فلم يقده هواه ، ولم تؤثر عليه شهوته ، البطل الذي يقيم بجهاده عمود الدين ، فلا يأخذه زهو الفارس البطل . بل ينسى ذاته ويتناسى وجوده ، اذ كانت مصلحة المبدأ في استمرار بقائه تدعوه لذلك ، فيقبل الحيف ما دام على حقه ،.. البطل الذي يظفر بألد اعدائه ، فيغمد سيفه كرامة له . لئلا يرى من ذلك الجبان الدنيء عورته ، البطل الذي استطاع ان يفني جيشا دونما قتال ، فيعفو ويبيح لهم الماء ، البطل الذي يتجاوز في اكرام قاتله الى حد طلب العفو عنه ... الحاكم الذي لا يهمه ان يتخذ في سبيل تحقيق العدالة وملمة الجور، ما يزعزع حتى كرسي حكمه ، ولا يأخذ سبيلا فيه مجاملة لجائر ... تصفيق .

ذلك هو ابن ابيطالب ، وتلك هي سطور حياته الزاهية ، ولكن اين نحن شيعته من سيرته وتعاليمه وحياته ؟ اين نحن المسلمين من الاسلام في دستوره ومبادئه وقوانينه وانظمته ؟ هل بقي لنا من الاسلام اكثر من الاسم؟ نحن نعيش من الاسلام على هامشه ، بعد ان تخلينا عن تعاليمه ، واكتفينا بالحرف دون المحتوى .. لقد تفرقت بنا السبل ، وتقاذفتنا التيارات ، وانهالت علينا المبادىء المستوردة ، شرقية وغربية ، وعرجاء تميل مع هذه وتلك وكل العناصر تشن علينا وعلى مبدئنا حربها المسعورة وتتخذ في سبيل ذلك كل وسيلة لتبعد بنا عن نبع ديننا ومبدئنا القويم ، لتحول بيننا وبين جوهره ، فتفصل بين الدين والدولة ، وتحمل مثل شعار : (ما لله لله وما لقيصر لقيصر) والاسلام لا يعترف بشيء لقيصر فكل شيء لله وحده ــ تصفيق ــ الملك له ، والوطن له ، والمال له ، والناس عبيده وعياله ، وما اقربهم منه الا انفعهم لعياله ، الصالح العام هو السبيل الى الله ، والحكم بالعدل الذي جاء من الله هو السبيل للعزة والرفعة ــ تصفيق ــ هو الطريق للحرية والاستقلال ، هو البعد عن التبعية والنفوذ والاستعمار ــ تصفيق ــ .

لقد قال رئيس بريطاني : (انه لا سبيل لغلبة المسلمين ما دام القرآن

بين ايديهم) ومفهوم ان الغاية من ذلك هو الحكم بالقرآن ، هو تحكيم او امر الله وسننه في الحياة ، في جميع انحاء الحياة ،لا انه يعني ما دام القرآن في رف كل بيت مسلم أو يتلى في المساجد والعتبات المقدسة والمآتم يعني بذلك الحكم الاسلامي الذي هو الاصلح .. ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون ــ الفاسقون ــ الضالون المضلون ــ تصفيق حاد ــ.

ان الذين ينادون بفصل الدين عن الدولة اما مضلّلون أو مضلّلون ، مستعمرون او مستعمرون (تصفيق) والذين تنطلي عليهم الدعوة مغرورون مخدوعون ــ تصفيق .

الاسلام يختلف في قوانينه ودستوره عن الشرائع التي سبقته لانـه خاتمتها ، وله من ينابيعه ووافده ما تمده بطاقة الخلود ، واستمرارية البقاء وحتمية الحياة ، فهو قد جمع بين العقل والعلم ، بين الاخرة والدنيا ، بين العبادة والعمل ، بين المسجد والديوان .. نظم العلاقة بين الله والعبد ، بين الانسان والانسان حاكما ومحكوما ــ تصفيق ــ أبا وابنـا ، أخا وزوجـا وزوجة ، بين الفرد والمجتمع ، نظم حياة الاسلام ودسترها وقننها من اتفه شيء لديه حتى أعظم شيء ، أدبه حتى في تخليه واكله وشربه ومشيه كل حركة من حركاته .. تصفيق حاد .

ثم جعل له طاقة لتقبل الجديد في الحياة ، ودفع الانسان ليستعمل عقله ويشغل فكره ، ولا يئد طاقاته، ولا يهدر قواه ، مجّد العقل ، وكرم الفكر، وحث على العمل ، وصان الحقوق ، (تصفيق) .

سادتي ! اجدني قد اطلت عليكم كثيرا ، ولا بد لي ان اقف عند حد ، ولو كان في محل لا يجوز السكوت عنده ، ــ كما يعبر النحاة ــ فهـذا الموضوع لا تؤديه صفحات مهما طالت ، وما هذا كله بالنسبة لكل ما عرضت سوى ايماءة للشاطىء.

لذلك اقدم لكم كبير عذري اذا اخذت الكثير من وقتكم ، ثم اكرر